مَجَلَّةٌ فَصْلِيَّةٌ مُحَكَّمَةٌ

تُعْنى بِالتُراث الكَربَلائي

تَصْدُرعَنْ

العَتَبَةُ العَبَّاسِيَّةُ المُقَدَّسَة قِسْمُ الشُّؤُوْن الفِكْرِيَّةِ والثَقَافِيَّة

مَرْكَزتُراثْ كَربلاء

مُجَازَةٌ مِنْ وزَارَةِ التَّعْلِيْمِ الْعَالِيِّ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ

جَمْهُوْرِيَّةِ الْعِرَاقِ

مُعْتَمَدَةٌ لِأَغْرَاضِ التَّرْقِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ

السنة الأولى/ المجلَّد الأوّل/ العدد الثاني

١٤٣٥-١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م

الخطاب الحسيني في واقعة الطف
وحدة الدلالة وتنوّع الأبعاد

Husain's Oration in Al-Taff Battle:
Semantic Unity and Dimensions Variety

أ. د. عبدالباقي الخزرجي

الجامعة المستنصرية

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

Prof. Dr. Abdul. Baqy Al-Khazrajy

Al-Mustansiriyah University

College of Artsl

Dept. of Arabic

الملخص

لا شك في أهمية الخطاب ودراسته كونه يدور حول الكلام وتوجيهه ومراجعته لتحقيق قصد الإفهام ونقل الأفكار، وان البعد الإنساني للخطاب القرآني يترشح من خلال تتبع تصورات المتلقين للخطاب.

حيث تنوعت أبعاده مع الحفاظ على مقصدية واحدة، إذا تعددت وجوه الخطاب في القرآن ولم تأت على سياق واحد وعبر جسور التواصل الفكري والثقافي في القرآن الكريم نهل أهل البيت عليهم السلام من معينه الذي لا ينضب فجاءت أحاديثهم وخطبهم من نفس السراج.

ولذا تنوعت دلالاتها مع بقاء وحدة المقصدية فيها....

فكرة الدراسة هذه تأسست من خلال المكان الذي تحركت فيه الخطابات الحسينية مقترنة بالزمان والأحداث في واقعة الطف.

وكيف أن تلك الخطابات تنوعت واختلفت في الأبعاد وتوحدت في الدلالة والتي انبثقت من الوحي والقرآن.

واثبت البحث أن الخطاب الحسيني هو جزء من الخطاب المحمدي الذي يجسد الخطاب القرآني في قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

في أهدافه وتحركاته واخذ البحث منهجا قائما على بؤرة إشعاع رئيسة وهي المصدر (الإمام الحسين عليه السلام) وتنوع خطابه على نحو محاور خمسة.

إذ تناول البحث الخطاب لغةً والخطاب في القرآن الكريم مبينا عمق الصلة بينهما.

جاء المحور الأول بالخطاب الحسيني مع الأصحاب عليهم السلام.

بينما تناول المحور الثاني الخطاب الحسيني مع أهل بيته عليهم السلام.

وتطرق المحور الثالث إلى خطاب الإمام الحسين عليه السلام مع نفسه.

ودرس المحور الرابع خطاب الحسين عليه السلام ومناجاته مع ربه.

أما المحور الخامس والأخير فكان الخطاب مع أعدائه.

أكدت الدراسة على ارتباط نهضة الإمام الحسين عليه السلام من خلال الخطاب بوسائل الحياة الأبدية التي منحتها عبق الخلود ونكهة الإيمان.

وان النهضة الحسينية تحركت صوب دلالة مركزية على الرغم من تنوع أبعاد الخطاب فيها وعلى وفق اختلاف المتلقين لاسيما أن هذا التنوع أثرى الخطاب وأفاد الأهداف التي رمى إليها.وهي التوحد مع الخطاب الإلهي، وانه مصداق من مصاديقه وان الخطاب الحسيني هو خطاب محمدي ينتج عن ذلك الارتباط بالخطاب القرآني الإلهي المقدس.

Abstract

No doubt, oration is important to study as it deals with speech + its purpose and its handling out so as to help other understand and also to express speaker' thoughts and intentions. The human said of the Quranic oration is noticed through the way recipients think of such an oration.

Its dimensions are too varied but still keeping one intention. The ways the Quranic oration is expressed are also various and they do not usually follow one style. And through the intellectual and cultural bridges in the Holy Quran, Ahlul-Bait (peace and blessings be upon them) have learnt much that their speeches and orations have been of the same light source. Their meanings are varied but with one intention. This study is based on the place where Husainees' orations have been narrated together with the time and events in al-Taff battle and also how such orations are varied and different in dimensions but still keeping one intention and meaning which stems from Revelation and Holy Quran.

The research has proved that the Husainees' oration is part of the Muhammadan's oration which substantiates the Quranic oration as Allah

the Most High says; its aims and purposes are the same + the research has taken one route which is based on a main radiation focus which is the source (Imam Husain, Peace be upon him) and how his oration is varied is looked at from five respects.

The research has dealt with the oration linguistically and the oration in the Holy Quran showing the profound relationship between them.

The first section has dealt with the Husainee's oration directed to the closest friends (peace be upon them).

The second section has tackled the Husainee's oration directed to his progeny (peace be upon them), while the third section has dealt with Imam Husain's (peace be upon them) oration to himself.

The fourth section has dealt with Imam Husain's (peace be upon them) oration and also his secret talk with Allah, the Most High.

The fifth and last section has been on Imam Husain's (peace be upon them) oration with his enemies.

The study has asserted that there has been a close relation through the use of oration between Imam Husain's (peace be upon them) uprising and the eternal life means through which eternity and faithfulness flavour has been gained.

The Husainy's uprising has been directed towards a central meaning

inspite of the various dimensions oration has taken and according to the different recipients, especially that such variety has enriched oration and has achieved its goals which has been unity with Allah's, the Most High, oration as its one confirmation of it and that Husainy's oration is a Muhammadan's oration resulting from that relation with the Holy Quranic Divine oration.

الخطاب الحسيني
في واقعة الطف وحدة الدلالة وتنوّع الأبعاد

لاشكّ أنّ الخطاب الحسيني يُعدّ أداة لخلق الحوار الاجتماعي، ولكونه وسيلة من وسائل الاتصال مع الآخر ينقل عبرها المتكلم أفكاره إلى المخاطب في محاولة منه لخلق عملية اشتباك مع وعي الآخر (المخاطب) محاولا الانتماء إلى منطقة وعيه، وتفعيل تأثير تلك الأفكار فيه ومن ثمّ الانتقال به إلى منطقة المتكلم ومحاولة فهم واستيعاب القصد من خطابه.

وفكرة البحث تتأسس على منطقة خطابات الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف؛ وكيف أنّ تلك الخطابات على تنوّع مشاربها ومقصدها إلا إنها تملك سمةً رئيسة وهي الدلالة الواحدة والمقصدية المركزية والتي تنبلج من أعماق الوحي والقرآن الكريم وسوف يثبت البحث أنّ الخطاب الحسيني كوكب من كواكب الخطاب المحمدي والذي هو مشرق في سماء الخطاب القرآني المقدس، في أهدافه ومقاصده وحركته وأنواعه؛ إذ ينطلق البحث مع حركة الخطاب الحسيني مع الله سبحانه وتعالى ومع نفسه ومع أهل بيته وأصحابه وأخيرا مع أعدائه. وسوف يقوم البحث بدراسة مقصدية كل هذه الأنواع ويثبت أنّ هناك دلالة مركزية تربطها مع بعضها البعض مع كل الظروف المختلفة التي تحرك فيها الخطاب الحسيني.

الخطاب لغةً:

يرجع الخطاب لغةً إلى الفعل الثلاثي (خَطَب) وقد ورد في لسان العرب (خاطب) مخاطبة: وهو توجيه الحديث إلى مخاطب؛ ولا يكون ذلك إلا باعتبار بلاغته وقوة تأثيره[1].

الخطاب في القرآن الكريم:

ولو تتبعنا المفهوم الاصطلاحي والدلالي للخطاب في القرآن الكريم لوجدنا أنّ المفهوم يتحرك على وفق رؤية ثابتة من الجانب الدلالي، فقد وردت الإشارة إلى مصطلح الخطاب في القرآن الكريم (خمس مرات). وجميعها اشتركت في دلالة واحدة لا تخرج غالبا عن المعنى الاصطلاحي لها، فضلا عن أنّ تلك الآيات تعكس إلى جانب المفهوم الاصطلاحي جزءاً من غاية ومقصدية الخطاب والتي تحقق نجاحه.

ونجد السورة الأولى التي تناولت مفهوم الخطاب هي سورة: ص/ الآية: ٢٠ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ يقول صاحب تفسير الميزان؛[2]. (وفصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره وتمييز حقه من باطله وينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم، وقيل المراد به (الكلام القصد) ليس بإيجازه مخلا ولا بإطنابه مملا. وقيل فصل الخطاب قول (أما بعد)؛ فهو عليه السلام أول من قال: أما بعد والآية الآتية تؤيّد ما قدمناه وهي سورة ص/ الآية: ٢١ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾.

ونجد في الموضع الثاني من السورة نفسها ص:/ الآية: ٢٣ ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ

﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. وتعني هنا غلبني ظلماً وقهرا في الحجاج[٣].

وجاءت اللفظة في الموضع الثالث من سورة هود/ الآية ٣٧ ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾. والمعنى في قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. أي لا تسألني في أمرهم شيئا تدفع به الشر والعذاب وتشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأنّ القضاء فصل والحكم حتم وبذلك يظهر أنّ قوله ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ في محل التعليل لقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ أو لمجموع قوله ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ويظهر أنّ قوله، وَلَا تُخَاطِبْنِي، كناية عن الشفاعة[٤]. ولو نظرنا إلى الموضع الرابع في القرآن الكريم وهو من الإشارات المهمة لمفهوم الخطاب فقد جاء الخطاب في قوله تعالى من سورة الفرقان/ الآية٦٣ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أيّ إذا خاطبهم الجاهلون خطابا شائناً عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يُثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول وقالوا لهم قولا سلاما خاليا عن اللغو والإثم.واتساقاً مع قوله تعالى في سورة الواقعة/ الآية٢٥، ٢٦ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل[٥].

وأما الموضع الأخير الذي وردت فيه لفظة الخطاب فكان في سورة النبأ/ الآية: ٣٧ ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾. إنّ المراد بخطابه تعالى تكليمه في بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعي إلى الفعل كأنْ يقال لِمَ فعلت هذا؟. ولم لم تفعل كذا؟. كما يُسأل

الفاعل منّا عن فعله فتكون الجملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾. في معنى قوله تعالى سورة الأنبياء/ الآية: ٢٣: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

وخلاصة القول على الخطاب في القرآن الكريم أنّه تنّوع بمشاربه ومقصديه ولكن كان يتحرك ضمن بؤرة مركزية واحدة في زمكانية واحدة وهو وسيلة تواصل بين المتكلم والمخاطب ووجدنا أنّ أهم مقاصده في القرآن هي دلالته على المحاجة والسؤال والرجاء والاشتباك في الكلام والرؤيا والفصل في القول المحكم.

وعندما نتناول الخطاب الحسيني نجد أنه امتداد للخطاب القرآني على نحو عام ويلتقي مع الخطاب الإلهي في جميع مقاصده وأهدافه التي وصلت إلى أهل الأرض عن طريق الأنبياء والرسل والصالحين وأنهم هدفوا إلى الإصلاح ونشر الفضيلة والقيم الأخلاقية ودعوا الناس إلى طريق الإصلاح ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق ذلك وتعرضوا إلى شتى أنواع المقاومة والتكذيب والعذاب من شعوبهم الذين أرسلوا إليهم. ومن هنا تتواصل أسس العلاقة بين الخطاب الإلهي متجسّدا بخطاب الأنبياء عليهم السلام؛ وخطاب الإمام الحسين عليه السلام وهذه العلاقة أخذت شكل الميراث المقدس من الأعلى إلى الأدنى إن الخطاب الحسيني متصل بالخطاب الرسالي وعن طريق الميراث الإلهي الذي أوحى به إلى كل أنبيائه ورسله، وسوف تكون دراستنا لأنواع الخطاب الحسيني على محاور ونقوم بتحليلها وعلى وفق القراءة التي تستخرج جميع المقاصد فيه وكيف أنّ الإمام الحسين عليه السلام تنوّع في خطاباته بين مناجاته لربه وخالقه وبين مخاطبته أهل بيته وأصحابه وبين مخاطبته أعداءه من الذين خرجوا لقتاله؛ وسوف نأخذ نماذج لكل حالة من هذه الحالات ونعمل على تحليله وبيان مقاصده وربطه بالأصل

والمصدر أي بالخطاب المحمدي صلوات الله وسلامه عليه.

يروى أنّ الإمام الحسين عليه السلام وصل يوم الخميس الثاني من المحرم الحرام من سنة إحدى وستين وضرب أخبيته هناك فأتاه عمر بن سعد بالسيل الجارف من الرجال والخيل حتى نادى منادي ابن زياد في الكوفة ألا برئت الذمة ممن وجد بالكوفة لم يخرج لحرب الحسين عليه السلام[٦]. وبدأ يتسلل إلى الحسين عليه السلام من أصحاب عمر بن سعد في ظلام الليل الواحد والاثنان حتى بلغوا في اليوم العاشر زهاء ثلاثين ممن هداهم الله إلى السعادة ووفقهم للشهادة.

المحور الأول: الخطاب الحسيني مع الأصحاب عليهم السلام.

في ليلة عاشوراء بات أصحاب الإمام الحسين عليه السلام أولئك الأنجاب بين قائم وقاعد وراكع وساجد وأنّ الحرس لتسمع منهم في التلاوة دوياً كدوي النحل. ثمّ أنّ الحسين عليه السلام جاءهم فخطبهم وقال: (أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء اللهم إني أحمدك على أن كرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدةً فاجعلنا من الشاكرين (أما بعد) فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً ألآ وإني لا أظن أنّ لنا يوما من هؤلاء ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ودعوني وهؤلاء القوم فإنهم ليس يريدون غيري. فأبى عليه أهل بيته وأصحابه وأجابوه بما شكرهم عليه فخرج عنهم وتركهم على ما هم عليه من العبادة ينظر في شؤونه ويوصي بمهامه)[٧]. نجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام بدأ

الخطبة بداية سماوية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى ولو تأملنا الكلمات التي افتتح الإمام الحسين عليه السلام بها خطبته لوجدنا أنها حجة دامغة على أحقية أمره لكل من يسمع كلامه فعبارة (كرمتنا بالنبوة) عبارة تحمل دلالة انشطارية لها جوانب متعددة من أهمها التركيز على النبوة والحديث عنها بضمير الجمع (نا) والإشارة هنا واضحة لارتباطه رمزياً بالرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه في حديثه المتواتر (حسين مني وأنا من حسين) وقوله تعالى في آية المباهلة من سورة آل عمران/ الآية: ٦١ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ وكان معه الحسن والحسين عليهما السلام وكل هذه الدلالات يقابلها معادل موضوعي هو الضمير (نا) في خطبة الإمام الحسين عليه السلام (كرمتنا بالنبوة). ويستمر الحديث بصيغة الجمع وليس المفرد فلو قال الإمام الحسين عليه السلام مثلا (كرمتني أوعلمتني أو فقهتني) لما يعترض احد على ذلك ولكن كانت هناك مقصدية أخرى في غاية الأهمية هي جعل عملية الربط الزمني بين مرحلة النبوة والدعوة المحمدية من جهة وبين الرسالة الحسينية وواقعة الطفّ من جانب آخر وجعل المخاطب يشتبك مع رؤية المتكلم عبر مدّة زمنية تزيد على ستين عاماً.وبعد ذلك ينتقل الخطاب الحسيني إلى مرحلة أخرى لاتقلّ عن المرحلة الأولى أهمية وهي مرحلة الاختبار الحقيقي مع توفير كل مستلزمات الرضا في أية حالة من حالات الاختيار التي ترافق الخطاب؛ وينجح هؤلاء الثلة المؤمنة من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام في الاختبار بل ليس ذلك فحسب وإنما يجسّدون لوحة من لوحات الوفاء والفداء وهم يعلمون مسبقاً مصيرهم فيحول كل واحد منهم إلى ألف واحد وتتشظى أرواحهم الطاهرة لكي يتحول الإمام الحسين عليه السلام إلى رمز مقدس في أعماقهم

يستشعرون به وينتمون إليه ويتحركون منه وهذا واضح جليّ في طريقة قتالهم واستشهادهم صلوات الله ورضوانه عليهم أجمعين. ونأخذ أنموذجا منهم وهو زهير بن القين رضوان الله عليه عندما سمع الإمام الحسين عليه السلام يخاطبهم فقام وقال له: لا والله لا وألف لا فلو قُتلت ونشرت وذريت في الهواء ورجعت للحياة ألف مرة لفعلت ذلك وأنا أعلم أنها ميتة واحدة ونفس واحدة؛ ومن هنا وصفهم عليهم السلام بأنهم خير الأصحاب وأبرهم وأوفاهم؛ ولكنهم شربوا المنية في مقام أنكد وقتلوا صبراً واحتسابا في سبيل الله فجزاهم الله عن ذلك أفضل الجزاء بأن جعل قبورهم في الدنيا مع قبر الحسين وأولاده عليهم السلام؛ وتحولت قبورهم إلى قبلة للمايين المؤمنين في العالم وكانت عاقبتهم خيرًا في الآخرة فهم مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين في جنات النعيم.ولو تأملنا خطاب الإمام الحسين مع أصحابه لوجدنا أن دلالته واحدة وهي دلالة إلهية ذات أبعاد متنوعة منها: البعد القيمي الذي تجسّد بالوفاء والشجاعة والمحبة الحقيقية والصدق والثبات على الحق وأما البعد الثاني البعد النفسي الذي تجسّد بتحول الحسين عليه السلام إلى رمز خاص ومقدس في ذواتهم، وأما البعد الثالث البعد الروحي الذي تجسّد في تحول الحسين عليه السلام إلى معشوق يرتبط به العاشق بطريقة عجيبة سلبت العقول وحيّرت الأفكار ومثالنا على ذلك الصحابي الجليل جون رضي الله تعالى عنه الذي أعلن أن حب الحسين أجنّه فهو عاشق مجنون بحب الحسين عليه السلام وما أحلاه من جنون وما أجمله من عشق.

المحور الثاني: الخطاب الحسيني مع أهل بيته عليهم السلام

استشهد مع الإمام الحسين صلوات الله عليه من أولاده وإخوته وبني عمومته من آل أبي طالب، الذين هم أقرب الناس للنبي صلى الله عليه وآله وأخصهم به بحيث يكون وجودهم بقاء له ومذكرا به.وخصوصا وأن فيهم من يشبه النبي صلى الله عليه وآله فقد ورد أنه عندما برز علي بن الحسين الأكبر عليهما السلام قال الحسين عليه السلام (اللهم اشهد على هؤلاء القوم فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقا ومنطقاً برسولك محمد صلوات الله عليه وكنا إذا اشتقنا إلى وجه رسولك نظرنا إلى وجهه)[٨].

ثم رفع يديه وصوته عليه السلام وقرأ قوله تعالى: من سورة آل عمران/ الآية: ٣٣-٣٤ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولو تأملنا ما قيل في حق أهل البيت الذين خرجوا مع الحسين عليه السلام لعرفنا منزلتهم ومكانتهم العظيمة من حيث الدين والخلق السامي والشرف والسؤدد.[٩] فقد وصفتهم العقيلة زينب عليها السلام في خطبتها في مجلس يزيد (بإراقتك دماء ذرية آل محمد صلى الله عليه وآله ونجوم الأرض من آل عبدالمطلب). ووصفهم ابن عباس في كتابه إلى يزيد بقوله: (وقد قتلت حسيناَ وفتيان عبدالمطلب مصابيح الدجى وأعلام التقى). وفي حديث الريان بن شبيب عن الإمام الرضا عليه السلام قال: (وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلا ما لهم في الأرض شبيه)[١٠]. ولو نظرنا إلى دلالة خطاب الإمام الحسين عليه السلام مع أهل بيته لوجدنا أنّ الدلالة تتحرك نحو هدف مركزي هو إقامة الحجة والدليل على أعدائه بأنّ هذه الأسرة الطاهرة الشريفة هي نفسها أسرة الرسول الأكرم والتي رعاها الرسول الأكرم ونشأت وترعرعت في حجره وأنّ الله قال لرسوله العظيم لو

شئت لاتخذت اَجراً على رسالتك فقال يا رب لا أريد شيئاً إلا المودة في القربى ونزل قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ سورة الشورى/ الآية٢٣ وهذا ما أكده الإمام عند مقتل ولده علي الأكبر عليه السلام بأنه الشبيه الكامل خَلقا وخُلقا بالرسول الأكرم وكأنه يقول: إنّكم قتلتم رسول الله صلى الله عليه وآله بقتلكم عليّاً الأكبر عليه السلام. وتكرر ذلك عند مقتل ولده الرضيع عبدالله عليه السلام فلننظر ماذا فعل الإمام عليه السلام بعد مقتله؛ أولا رمى بدمه الطاهر نحو السماء ويقصد بذلك أنه حجة وبرهان عليكم وبشهادة الله قبل أن يتكلم كلمة واحدة وفعلا لم تنزل قطرة من دمه الشريف إلى الأرض ويذكر في بعض الروايات أنه خاطب الله عزّ وجل قائلاَ: (اللهم اطلب بدم ابن بنت نبيك) وكذا قوله عندما ذُبح ولده الرضيع (والله لأنت أكرم على الله من الناقة ولمحمد أكرم على الله من صالح).[١١] وإنا لله وإنا إليه راجعون. نجد هنا أنّ الربط بين حوادث الأنبياء الماضية وبين حوادث أهل بيت المصطفى الأكرم متصلة ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالسماء فضلا على أنّ الأفضلية هنا هي لأهل بيت الرسول الأكرم وهذا واضح في كلام الإمام الحسين عليه السلام عندما خاطب ولده الرضيع خطابا يبدؤه بالقسم واليقين بأنّه أكرم عند الله من ناقة صالح عليه السلام وأنّ جده محمداً صلى الله عليه وآله أكرم من نبي الله صالح عليه السلام. ونجد وحدة مركزية في خطابه مع أهل بيته وأصحابه وهي ارتباطهم بالملكوت الأعلى والهدف الأسمى الذي خلقوا من أجله وهو الصلاح وإقامة العدل في الأرض. وهنا نذكر خطاب الحسين عليه السلام (لم أخرج أشراًولا بطراً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.[١٢]

المحور الثالث: خطاب الإمام الحسين مع نفسهعليه السلام

يتمتع الإمام الحسين صلوات الله عليه بمؤهلات خاصة ومتميزة جعلت منه شخصية مؤهلة لقيادة الأمة؛ ويمتلك شخصية اتسمت بالحكمة والاستقامة والقوة والتصميم والصلابة في مواقفه وشجاعته المعروفة مضافا إلى ذلك أنه خامس أهل الكساءعليهم السلام وقد فرض احترامه على عموم المسلمين وهم يرونه في قرارة أنفسهم الرجل الأول فيهم.[١٣]

ونذكر هنا أنموذجا واحدا لذلك وهو ما رواه الإمام السجادعليه السلام قال: (إني لجالس في تلك العشية والتي قُتل أبي في صبيحتها وعندي عمتي زينب تمرضني؛ إذ اعتزل أبي في خباء وعنده جون مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه ويقول:

يا دهر أفٍ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيل ... والدهر لا يقنعُ بالبديلِ
وإنما الأمرُ إلى الجليل ... وكلُ حيٍّ سالكٌ سبيلي

فأعادها مرتين أو ثلاثا حتى فهمتها وعرفت ما أراد فخنقتني العبرة فرددتها ولزمت السكوت؛ وعلمت أن قد نزل[١٤] والواقع المتأمل لهذه الأبيات يجد أنّ الإمام الحسينعليه السلام ينعى نفسه ويعاتب الدهر عتابا مريرا وطريقه الذي قرر سلوكه هو طريق الأحياء في الحياة وأن الموت خط على بني آدم كما خطت القلادة على جيد الفتاة.وكان الإمام يكثر من الدعاء في حديثه مع نفسه ويقول (اللهم

أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة وكم من همّ يضعف فيه الفؤاد وتقلّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمن سواك، ففرجته عني وكشفته).[١٥]

المحور الرابع: الخطاب الحسيني مع ربّه ومناجاته له

لا شكّ في أنّ قضية الإمام الحسين عليه السلام قضية مرتبطة بالله أولًا وآخرًا بل إنّ التحرك الذي تحرك في إطاره الإمام الحسين عليه السلام بمجمله كان مرتبطًا بالله سبحانه وتعالى، وإلّا فشخص الإمام الحسين عليه السلام إمام معصوم مرتبط بالله سبحانه وتعالى، وإنما نقصد المفاهيم والشعارات التي طرحها الإمام الحسين عليه السلام لحركته ونهضته وكذلك استجابة الناس له والتزامهم بمنهجه وكان ذلك منطلقا من هذه الأهداف والشعارات.[١٦]

ولعل في وصيته الَّتي أوصى بها أخاه محمد بن الحنفية ما يوضح ارتباط الحسين عليه السلام ونهضته بحركة الإسلام والله حيث قال: (إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين).[١٧]

فنجد من خلال قراءة الخطاب أنّ الإمام الحسين عليه السلام يوضّح على نحو لا يقبل اللبس أنه رجل مكلف بالإصلاح في الأرض بعد أن رأى انحراف الحاكم عن العدل والإنصاف وعن الإصلاح فقدّم نفسه رجلا معروف النسب

والحسب والقرابة والمكانة من النبي الأكرم وأعلن أن هدفه الإصلاح ولا شيء غيره وأينما كان الإصلاح في أمة جده التي انحرفت عن عمل المعروف والنهي عن المنكر وقال بالحرف الواحد (أسير بسيرة جدي وأبي) صلوات الله عليهما وترك الخيار للمسلمين في القبول أو الرد وأن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم والفيصل في الحالتين.

ونجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام عاشق ملهم لله سبحانه وتعالى وأنّ هذا العشق وهذه العلاقة جعلت من الإمام يقدم أنموذجا فريدا ومتميزا للشهادة لم يحصل مع جده أو أبيه أو أخيه أو حتى مع جميع أصحابه وأهل بيته فهم جميعا قد فارقوا الحياة في حجر أبي عبدالله عليه السلام وتم نقلهم بعد ذلك إلى الفسطاط الذي فيه الشهداء ولكن الإمام روحي له الفداء استشهد بطريقة وحشية غريبة لم تحدث مثلها في التاريخ ونستشهد بالأبيات التي قالها الإمام الحسين عليه السلام عندما كان ينظر لله سبحانه وتعالى ويتحدث معه حيث قال:[١٨]

تركتُ الخلقَ طرّاً في هواكا ... وأيتمتُ العيالَ لكي أراكا

ولو قطّعتني في الحبِ إرباً ... لما مالَ الفؤادُ إلى سِواكا

إذن كانت علاقة الإمام الحسين عليه السلام علاقة عشق وهيام دفعت به إلى نوع من التضحية أضحت لوحة من لوحات الحرية في العالم ومثالاً للعدالة وطلب الحق ليس له مثيل في التاريخ وها هو الحسين عليه السلام تحوّل إلى قبلة العشاق في العالم أجمع يتحركون صوب أرضه أرض الشمس.

المحور الخامس: الخطاب الحسيني مع أعدائه.

بالطبع أنّ الخطاب الحسيني مع الأعداء كان خطابا إلهيا محمديا علويا في كل أبعاده وأثر في كثير من الأعداء وأحدث تأثيرا كبيرا في صفوفهم وكان ذلك واضحا جليا في تحول عدد كبير من الذين هداهم الله لنصرة الإمام الحسين عليه السلام وبلغ عددهم زهاء ثلاثين رجلا تسللوا إلى معسكر الإمام وعلى رأسهم الحر بن يزيد الرياحي الذي خرج لحرب الحسين عليه السلام والتضييق عليه وإذا بالحسين عليه السلام يخطب بهم ويقدم خطابا ملؤه الحجة والبراهين عليهم وعلى ظلمهم وباطلهم. فصلى الحسين عليه السلام الظهر وقال: (أيها الناس إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم أن أقدم علينا فأنه ليس علينا إمام لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق فإن كنتم على ذلك فأعطوني ما اطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم وإن لم تفعلوا وكنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم، فسكتوا عنه ثم صلّى بهم العصر فخطب بهم: أيها الناس إنكم إن تتقوا الله وتعرفوا أنّ الحق لأهله يكن أرضى لله عنكم ونحن أهل بيت محمد صلوات الله عليه وعلى آله وسلم أولى بالناس بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان فان أبيتم إلا كراهية لنا وجهلا بحقنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم وقدمت عليّ به رسلكم انصرفت عنكم).[١٩]

والمتأمل لمقصدية الخطبة يجد أن الإمام الحسين عليه السلام كان قائدا واقعيا ومنطقيا في كلامه فأوضح لهم من هو ومن هم الذين يدافعون عنهم وكيف أنه لم يتحرك إلا بعد وصول المكاتبات والمعاهدات من زعماء القبائل في الكوفة وأنه إمام الحق والعدل وأن الملك له ولأهل بيته وأن الأمويين اغتصبوا ذلك ظلما وعدوانا وهم

أئمة جور وضلالة وباطل ومع كل البيان والوضوح في الأمر فلهم الخيار في الموافقة أو الرجوع إلى المكان الذي قدم منه وما كان منهم إلا التضييق على ركب الإمام والدفع به تجاه كربلاء حيث مكان الواقعة. ولو تأملنا مقاطع من خطب الإمام الأخرى لوجدنا أن مقصدية الخطاب تتحرك نحو نقطة إشعاع واحدة وهي أن النهضة الحسينية برمتها مرتبطة بالسماء من جانب ومرتبطة بالرسالة المحمدية وتعديل الانحراف الذي أصاب مسارها بعد وفاة الرسول الأكرم.

ولعل في الكلمات المأخوذة من خطب الإمام الحسين عليه السلام ما يجسّد المقصدية المركزية في واقعة الطف:

(والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد)

(ولا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما)

(والموت أولى من ركوب العاروالعار أولى من دخول النار) (ألا إنّ الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهُرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام).[٢٠] نجد أنّ الخطاب يتحرك في محورين رئيسين هما: القسم الذي يُقسم به الإمام عليه السلام بان المعركة عادلة وواضحة المعالم والرؤية والدليل والبرهان فضلا عن كونها لا تقبل المساومة والتفاوض والتنازل والعبودية فهي رمز من رموز الحرية في الأرض. والمحور الثاني رفض الحياة والبقاء فيها على أساس الذل والمهانة والعبودية والعيش مع الظالمين ومن هنا ارتبطت نهضة الإمام الحسين عليه السلام من خلال الخطاب الحسيني بوسائل الحياة الأبدية التي منحتها عبق الخلود ونكهة الإيمان وعطر المحبة ونجد

نهضة الإمام الحسين تحركت صوب دلالة مركزية واحدة على الرغم من تنوع أبعاد الخطاب الحسيني فيها وعلى وفق المتلقين له لكن هذا التنوع أثرى الخطاب وأفاد من مختلف الأهداف التي رمى إليها والتي جمعت في دلالة مركزية واحدة قصدها الإمام الحسين عليه السلام وهي التوحّد والانتماء إلى الخطاب الإلهي الذي نزل على الرسل والأنبياء ولكونه مصداقا من مصاديق ورثة علومهم فضلا عن كونه ينتمي إلى الحجور الطاهرة والطيبة لأهل بيت النبوة وهذا يعني أنّ الخطاب الحسيني هو خطاب محمدي ويتأسس على ذلك أنّ المواجهة حدثت بين فريقين يتجسد كل منهما بانتمائه إلى الأصل الذي يدفعه وكان انتصار فريق الحسين عليه السلام على فريق يزيد لعنة الله عليه انتصارا رسم الدم فيه والسيوف أنشودة الخلود والبقاء عبر مئات السنين ورمى بيزيد وأتباعه إلى أعماق الذل والهوان لكونهم مرتبطين بالأرض والدنيا واللذات والشيطان الذي تجسد فيهم بأبشع صوره وأشدها حقدا وكراهية في التاريخ بينما ارتبط الحسين عليه السلام ومن معه بالسماء وبالله وتحولت أرواحهم الطاهرة إلى رموز مقدسة تحلق عاليا في سماء الحرية والسعادة الأبدية وكسبوا الخلود وأضحت نهضة الإمام الحسين عليه السلام رمزا للأحرار في جميع أنحاء العالم.

الهوامش

(١) لسان العرب/ مادة خطب.
(٢) تفسير الميزان ١٧/ ١٩١.
(٣) المصدر نفسه ١٧/ ١٩٣.
(٤) المصدر نفسه ١٠/ ٢٤١.
(٥) المصدر نفسه ١٥/ ٢٣٨.
(٦) إبصار العين في أنصار الحسين ع ص: ١٠.
(٧) المصدر نفسه ص: ١١.
(٨) فاجعة الطف ص: ٦٧.
(٩) المصدر نفسه ص: ٦٧.
(١٠) ينظر المصدر نفسه: ٦٨.
(١١) ينظر المصدر نفسه: ٩٣.
(١٢) ثورة الحسين ص: ٩٢.
(١٣) فاجعة الطف ص: ٤٤٣.
(١٤) تاريخ النياحة ص: ٤٦.
(١٥) إبصار العين في أنصار الحسين ع ص: ١١.
(١٦) ثورة الحسين ص: ٩١
(١٧) المصدر نفسه ص: ٩٢
(١٨) إبصار العين في أنصار الحسين ع ص: ٩.
(١٩) ثورة الحسين ص: ٩٤.
(٢٠) المصدر نفسه ص: ٩٤.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام - تأليف محمد بن الشيخ طاهر السماوي - المكتبة العربية - مطبعة الآداب - النجف.
٣. تاريخ النياحة على الإمام الحسين بن علي عليهما السلام تأليف السيد صالح الشهرستاني: تحقيق وإعداد الشيخ نبيل رضا علوان الطبعة الأولى: سنة ٢٠٠٣م (الجزء الأول والثاني) مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر: قم - ايران.
٤. ثورة الحسين عليه السلام تأليف آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم الطبعة الأولى ١٤١٩هـ المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.
٥. فاجعة الطف - أبعادها، ثمراتها، توقيتها: بحث تحليلي في النهضة الحسينية: تأليف السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية ط٣ / ١٤٣١ هجرية - ٢٠١٠ ميلادية، العراق - النجف الأشرف.
٦. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبدالباقي الطبعة الثانية: ١٤٢٣ هجرية المطبعة - اميران - منشورات ذوي القربى.
٧. الميزان في تفسير القرآن - العلامة السيد محمد - حسين الطباطبائي - دار المجتبى - إيران - قم.
٨. لسان العرب - ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي الأندلسي (٧١١هـ) دار صادر للطباعة والنشر ط ١ (بيروت ١٩٩٧).